صفحة من تأريخ النجف

عوامل الثورة النجفية

ضد الاحتلال سنة ١٩١٨ م

بقلم : محمد علي كمال الدين
استاذ الادب العربي في المتوسطة الشرقية

(١)

لم تتم الثورات بين الناس بسهولة ويسر بل لابد لها من مؤهلات نفسية ومادية تقومها ومن عوامل خارجية فعالة تدفع بالامة أوالقوم الى ولوج مسالك التضحية الوعرة ولم ينعم الناس يوماً ما في اوساط نيران الثورة لمجرد إرادتهم ورغبتهم لاسيما اذا كانت ضد حكومة قوية مسيطرة وبنوع اخص اذا كان لتلك الحكومة ثقة متمركزة لدى الامة ومغلغلة في النفوس.

ومن هنا ندرك صعوبة دراسة عوامل الثورة النجفية ضد الانكليز اولئك القوم الذين سلكوا مختلف الاساليب لبث دعوتهم في العراق وبذلوا الغالي والرخيص قبل الحرب العامة بزمن بعيد وخلالها ايضاً. ولكنا سنعرض العوامل التي وقفنا على تطورها في وقته ما استطعنا الى ذلك سبيلا.

١ ـ زوال الثقة بالانكليز

لقد بدأت تتقلص الثقة بالانكليز من نفوس السواد النجفي العام تدريجاً في بحران خلو النجف من حكومة ما وعندما حكمت نفسها بنفسها في بحران سنة ١٩١٥ وفي خلال السنتين ١٩١٦ـ ١٩١٧ فقد كان التجار النجفيون يحملون مع بضاعتهم من البصرة بضاعة اخرى هي اساليب الحكم الاحتلالي الكيفي هناك ولم يكن هولاء التجار مئات بل الوفا بحيث يصح ان نقول ان التجارة تحول مجراها عن بغداد الى النجف واشغلت النجف مكانة بغداد التجارية ـ واصبحت احدى اسواق البصرة وكان هولاء الالوف يحتكون بالانكليز بحكم تجارتهم التي لاتصل النجف الا بعد تحمل انواع العذاب من الانكليز والوان المغامرة في طريق الفرات البري والنهري الممتلىء ـ بالعشاير المتمردة اضافة الى الجيوش التركية ـ المتربصة فكان من السهل عليهم ان يقارنوا بين الجيشين والحكومتين غير ان صدى مشاهدات هولاء التجار كان خافتاً امام قسوة العثمانيين في الكارثة التي مثلها عاكف بك في الحلة وفي كربلا في اواخر سنة ٩١٦ولكن لم يلبث هذا الصدى ان راج في اوائل سنة ٩١٧ واصبح سمر المجالس النجفية هو تلك الاوامر والضرائب والاعمال التي ينفذها الاحتلال على البصرة والناصرية وما اليهما بقسوة في حين ان النجف تزدهر بحرية كاملة لم تحلم بها من قبل وزعماء النجف ينصب عليهم الذهب انصباباً باسم المتاجرة من الانكليز والعثمانيين المتسابقين في خطب ودهم

هكذا أخذت تتحطم الثقة بالانكليز من نفسية السواد الذي عليه وحده المعول في نهضات الشعوب ولا تنجح الطبقة الخاصة في اعمالها الا اذا اسندها السواد ودعمها فقد كانت الطبقة الخاصة بالنجف تعمل على مكافحة لدعاية البريطانية منذ الدستورين الايراني والعثماني سنة ٩٠٨

وبذلت قصارى جهدها فلم تفلح بل زاد نشاط الدعوة وتمركزت الثقة بالانكليز في نفسية السواد على ان هذه الطبقة لم تكن قليلة العدد او المكانة بل كان في ضمنها كثير من علماء الدين واتباعهم وحاشيتهم اضافة الى طبقة المتجددين الذين انتموا الى الاحزاب السياسية القائمة حينذاك .

كما وقد رأينا هذه الطبقة اول من شايع العثمانيين خلال الحرب العامة وانضم الى صفوفهم بدون قيد ولا شرط ومع ذلك كان اثرها على نفسية السواد النجفي ضئيلا بدليل ثورة سواد النجف ضد العثمانيين انفسهم خلال سنة ٩١٥ في حين انحياز الطبقة الخاصة بين خطوط القتال في جنب العثمانيين نعم كان لها إثر كبير على العشاير الذين لم تنلهم قسوة العثمانيين فدفعت بهم الى الجهاد باسم الدين واسندت بهم الجيش العثماني . وعلى الاجمال كان تأثيرها على نفسية السواد النجفي ضئيلا نسبة ، غير ان مشاهدات اولئك التجار النجفيين واحاديثهم واهوال حرب الانكليز التي اصطلى بنارها بعض النجفيين تضافرت هي ونظرية الطبقة الخاصة وعندها تمكنت من ازالة الثقة بالانكليز وكبح جماح الدعاية الانكليزية

٢ ـ زوال الثقة بالاجانب عامة

كان للتجاريب القاسية التي مثلها الحكم العثماني بالنجف وللمشاهدات والحوادث الحربية مع الانكليز الاثر الفعال في تكوين شعور عام لدى السواد زالت معه الثقة بالاجانب عامة او كادت وقد بدأ هذا الشعور المقدس يفعل فعله في بعث الكيان القومي وفي التفلت من تلك الاستكانة المزفته وتحكمات الاجانب المدبرة غير ان هذا الشعور كان طبيعيا لا ارادياً فهو كالشك والحيرة لا يدري صاحبه ماذا يعمل لتحقيق شعوره الذي لم يتبين معالمه بادلة وبراهين منطقية وعلى كل كان هذا الشعور مبعث الامل اللامع وقد تجلت مظاهره عند انتهاء دور الفترة او عند سقوط بغداد ١٧ اذار سنة ٩١٧ وكانت قد ساندته عدة عوامل اخرى خلقتها ظروف الفترة وهذه هي العوامل

١ ـ الخوف من بطش الانكليز الذي مثلوه في منطقة الاحتلال بنفي الرجال وجمع الاموال بطرق واساليب مختلفة

٢ ـ النفوذ والامرة التي حاز عليها النجفيون بعد زوال الحكم الاجنبي وشمول هذا النفوذ جميع نواحي الفرات الاوسط وبلوغه البصرة تقريبا

٣ ـ الغرور والاعتداد بالنفس المنبعثة عن الشجاعة والسلاح الوفير والعدة المبتذلة فقد اصبح في النجف مالا يقل عن ستة آلاف مسلح محارب

٤ ـ الحرص على محافظة وضع النجف الذي كان موردا للمتاجرة العامرة ولجباية الضرائب التي ملأت خزائن النجفيين

٥ ـ الدور الذي قامت بتمثيله معظم الطبقة السياسية المثقفة التي كانت تدين بالمبادى العربية ـ واستقلال العرب منذ نشأتها الأولى في الاستانة وسورية ومصر سنة ١٩٠٩ فقد بثت الدعاية الواسعة لانهاء تحكمات الأجانب وكان من أبطالها السيد سعيد كمال الدين والسيد عبد المطلب الحلي والشيخ محمد رضا الشبيبي والشيخ محمد رضا الجعفري والشيخ عبد الحسين الحلي وعبد العزيز الجواهري والسيد حسين كمال الدين